كتاب غاية النفع

في شرح تمثيل المؤمن بخامة الزرع

تأليف الشيخ الامام العلامة الحافظ أبي الفرج زين الدين
عبد الرحمن بن رجب البغدادي الحنبلي
رحمه الله تعالى آمين

﴿ طبع على نفقة عبد التواب و بنيه ﴾
أصحاب المكتبة الدينية السلفية في ملتان بالهند
بحارة قدير أباد ، خارج الباب اللاهوري

﴿ الطبعة الأولى سنة ١٣٥٨ هـ ـ ١٩٣٩ م ﴾

مطبعة أنصار السنة المحمدية
بمصر : عابدين ، ١٠ حارة الدمالشة

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر وأعن يا كريم

خرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال « مثل المؤمن كمثل خامة الزرع من حيث أتتها الريح كفأتها فاذا اعتدلت تكفأ بالبلاء ، والفاجر كالأرزة صماء معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء » وهذا لفظ البخاري

وخرجا أيضا من حديث كعب بن مالك رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال « مثل المؤمن كالخامة من الزرع تفيؤها الريح مرة وتعدلها أخرى ، ومثل المنافق كالأرزة لا تزول حتى يكون انجعافها مرة واحدة » وخرجه الامام أحمد بمعناه من حديث جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ . وخرجه البزار من حديث أنس عن النبي ﷺ .

ففي هذه الأحاديث أن النبي ﷺ ضرب مثل المؤمن في إصابة البلاء لجسده بخامة الزرع التي تقلبها الرياح يمنة ويسرة . والخامة الرطبة من النبات . ومثل المنافق والفاجر بالأرزة ، وهي الشجرة العظيمة التي لا تحركها ولا تزعزعها حتى يرسل الله عليها ريحاً عاصفاً فتقلعها من الأرض دفعة واحدة ، وقد قيل انها شجرة الصنوبر . قاله أبو عبيدة وغيره .

ففي هذا فضيلة عظيمة للمؤمن بابتلائه في الدنيا في جسده بأنواع البلى ، وتمييز له على الفاجر والمنافق بأنه لا يصيبه البلاء حتى يموت بحاله فيلقى الله بذنوبه كلها فيستحق العقوبة عليها .

والنصوص في تكفير ذنوب المؤمن بالبلاء والمصائب كثيرة جدا

ففي الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها عن النبي ﷺ قال « ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها »

وفيهما أيضا عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال « ما يصيب المؤمن من بلاء ولا نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه »

وفيهما أيضا عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال « ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حت الله عنه خطاياه كما يحت ورق الشجرة » وفي رواية « يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها »

وخرج الامام أحمد والترمذي والنسائي من حديث سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال « ما يزال البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة »

وخرج الامام أحمد والترمذى وابن حبان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « مايزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى جسده وماله وولده حتى يلقى الله وما عليه خطيئة »

وفى صحيح ابن حبان عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « ان الرجل ليكون له عند الله المنزلة فما يبلغها بعمل فلا يزال الله يبتليه بما يكره حتى يبلغه إياها »

وفى المسند عن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « مايمرض مؤمن ولا مؤمنة ولا مسلم ولا مسلمة إلا حط الله عنه خطاياه » وخرجه ابن حبان وزاد « كما يحط الورق عن الشجر » وفيه عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ قال « مايزال البلاء الصداع والبلية بالمؤمن وان ذنبه مثل أحد فما يدعه وعليه من ذلك مثقال حبة من خردل، وانما يعرف قدر البلاء اذا كشف الغطاء يوم القيامة » كما فى الترمذى عن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم قرضت بالمقارض فى الدنيا » .

وفى سنن أبى داود عن عامر قال : جلست الى النبى ﷺ فذكر الأسقام فقال « ان المؤمن اذا أصابه السقم ثم أعفاه الله منه كان كفارة لما مضى من ذنوبه وموعظة له فيما يستقبل، وان المنافق اذا مرض ثم أعفى كان كالبعير عقله أهله ثم أرسلوه فلم يدر لم عقلوه ولم أرسلوه » فقال رجل ممن حوله يارسول الله : وما الأسقام والله ما مرضت قط . قال « قم عنا فلست منا » وهذا كما قال للذى سأله عن الحمى فلم يعرفها من سره أن ينظر الى رجل من أهل النار فلينظر الى هذا . فجعل الفرق بين أهل الجنة وأهل النار إصابة البلاء والمصائب . كما جعل ذلك فرقا بين المؤمنين والمنافقين والفجار فى هذه الأحاديث المذكورة ههنا .

وفى المسند عن أبى هريرة رضى الله عنه ان النبى ﷺ ذكر أهل النار فقال «كل شديد جعظرى هم الذين لا يألمون رؤوسهم » . وفى المسند عن أنس رضى الله عنه ان امرأة أتت النبى ﷺ فقالت ان بنتى كذا وكذا ذكرت حسنها وجمالها أثرت بها « قال قد قبلتها » فلم تزل تمدحها حتى ذكرت انها لم تصدع ولم تشتك شيئاً قط . قال « لا حاجة لى فى ابنتك »وخرجه ابن أبى الدنيا من وجه آخر مرسلا وفيه قال النبى ﷺ « لا حاجة لى فى ابنتك تجيئنا تحمل خطاياها ، لا خير فى مال لا يرزأ فيه وجسد لا ينال منه » .

وروى باسناده عن قيس بن أبى حازم قال : طلق خالد بن الوليد امرأته ثم أحسن عليها الثناء . فقيل له يا أبا سليمان لأى شىء طلقتها ؟ قال ما طلقتها لأمر ساءنى منها ، ولكن لم يصبها عندى بلاء وباسناده عن عمار بن ياسر أنه ذكر الأوجاع ، فقال اعرابى عنده : ما اشتكيت قط ، فقال عمار رضى الله عنه ما أنت منا أو لست منا ان المسلم يبتلى ببلاء فتحط عنه ذنوبه كما تحط الشجرة اليابسة ورقها ، وان الكافر والفاجر يبتلى ببلاء فمثله مثل بعير أطلق فلم يدر لم أطلق وعقل فلم يدر لم عقل .

وباسناده عن كعب قال : « أجد فى التوراة لولا أن يحزن عبدى المؤمن لعصبت الكافر بعصابة من حديد لا يصدع أبداً » وعن الحسن قال . كان رجل منهم أو من المسلمين اذا مر به عام لم يصب فى ماله

أو نفسه قال مالنــا تودع الله منا . وقال الحسن . انما أنتم بمنزلة الغرض يرمى به كل يوم ليس من مرة إلا قد أصابتكم فيه رميــة ، عقل من عقل وجهل من جهل ، حتى تجىء الرمية التى لاتخطىء . وعن صالح بن مسمار انه دخل على مريض يعوده فقال له : ان ربك قد عاتبك فاعتبه وعن ابن عباس رضى الله عنه انه كان اذا رأى ذا الفاقة قال له (ولربك فاصبر) وروى مرفوعا من حــديث خوات بن جبير واسناده ضعيف . وقال الحسن فى أيام الوجع : أما والله ماهو بشر أيام المسلم ، أيام قورب له فيها أجله ، أوذكـر فيها مانسى من معاده وكفـر بها عنه خطاياه . وكان اذا دخل على مريض قد عوفى قال له ياهــذا . ان الله قد ذكرك فاذكره ، وأقالك فاشكره ، فهذه الأسقام والبــلايا كلها كفارات للذنوب الماضية ومواعظ للمؤمنين حتى يتعظوا بها ويرجعوا بها فى المستقبل عن شىء مــا كانوا عليه . قال الفضيل : انما جعلت العلل ليؤدب بها العباد ، ليس كل من مرض مات . وإلى هذا المعنى الاشارة بقوله عز وجل (ألا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لايتوبون ولا هم يذكــرون) . ولبعض المتقدمين · إن فى كل عام مرضة ثم نقهة ولا تعى حتى الى متى

واعلم ان تمثيل المؤمن بالزرع وتمثيل المنافق والفاجر بالشجر العظام يشتمل على فوائد جليلة ، فنذكر ماتيسر الله منها . فمنها ان الزرع ضعيف مستضعف والشجر قوى مستكبر متعاظم ، فالشجر لايتأثر من حر ولا برد ولا من كثرة قاع ولا ريح . والزرع بخلاف ذلك ، وهــذا هو الفرق بين المؤمنين والكافرين وبين أهل الجنة وأهل النار ، كما فى الصحيحين عن حارثة بن وهب عن النبى ﷺ انه قال « ألا أخبركم بأهل الجنة وأهل النار ، أهل الجنة كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبره ، ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر » .

وفى المسند عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « ألا أنبئكم بأهل الجنة » قالوا بلى قال « الضعفاء المغلوبون ، ألا أنبئكم بأهل النــار » قالوا بلى . قال « كل شديد جعظرى هم الذين لايألمون رؤوسهم » . وخرجه أيضاً بمعناه من حديث سراقة بن مالك وعبد الله بن عمر وخرجاه فى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « تحاجت الجنة والنار فقالت الجنة مالى لايدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم وقالت النار مالى لايدخلنى إلا الجبارون المتكبرون » الحديث .

وقد ورد فى القرآن تشبيه المنافقين بالخشب المسندة فى نظرهم فقال : (واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة) فوصفهم بحسن الأجسام وتمامها وحسن المقام والفصاحة حتى انهم يعجب منظرهم لمن يراهم ويسمع قولهم من سمعه سماع إصغاء وإعجاب به ، ومع هذا فبواطنهم خراب ومعانيهم مهلكة ، فلهذا مثلهم بالخشب المسندة التى لا دفع لها ولا إحساس وقلوبهم مع هذا ضعيفة فى غاية الضعف يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم . وهكذا كل قريب يظهر خلاف مايضمر ، يخاف من أدنى شىء ويتحسر عليه .

وأما المؤمنون فبعكس هـذه الصفات ، حالهم مستضعفون فى ظاهر أجسامهم وكلامهم لأنهم اشتغلوا بعمارة قلوبهم وأرواحهم عن عمارة أجسادهم ، وبواطنهم قوية ثابتة عامرة فيكابدون بها الاعمـال الشاقة فى طاعة الله من الجهاد والعبادات والعـلوم وغيرها مما لا يستطيع المنافق مكابدته لضعف قلبه ، ولا يخافون من ظهور ما فى بطونهم إلا خشية الفتنة على نفوسهم فان بواطنهم خير من ظواهرهم وسرهم أصلح من علانيتهم . قال سليمان التيمى : أتانى آت فى منامى فقال يا سليمان ان قوة المؤمن فى قلبه ، فالمؤمن ما اشتغل بعمارة قلبه عن عمارة قالبه استضعف ظاهره وربما أوذى ، ولو علم أناس ما فى قلبه لما فعلوا ذلك . قال على لأصحابه : كونوا فى الناس كالنحل فى الطير يستضعفها ، ولو علموا ما فى جوفها ما فعلوا من أجل قوة قلب المؤمن وثباته على الايمان . فالايمان الذى فى قلبه مثله كمثل شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء فيعيش على الايمان ويموت عليه ويبعث عليه ، وأما الرياح وهى بلايا الدنيا تقلب جسمه يمنة ويسره وكذلك قلبه لا تصل إليه الرياح لأنه محروس بزبر[1] الايمان . والكافر والمنافق والفاجر بعكس ذلك ، جسمه قوى لا تقلبه رياح الدنيا وأما قلبه فانه ضعيف تلاعب به الأهواء المضلة فتقلبه يمنة ويسرة . فكذلك كان مثل قلبه كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار كما ان شجرة الحنظل ونحوه مما ليس له أصل ثابت فى الأرض

وقال على رضى الله عنه فى صفة الهمج الرعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا الى ركن وثيق . وبهذا يظهر الجمع بين حـديث تمثيل المؤمن بخامة الزرع والفاجر كشجرة الأرز ، وبين حديث تمثيل المؤمن بالنخلة فان الممثل بالزرع جسده لتوالى البلاء عليه ، والممثل بالنخلة إيمانه وعمله وقوله ، يدل عليه قوله عز وجل (ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة) فجعلها مثلا لكلمة الشهادتين التى هى أصل الاســلام فى قلب المؤمن ، كثبوت أصل النخلة فى الأرض وارتفاع عمـل المؤمن الى السماء كارتفاع النخلة ، وتجدد عمل المؤمن كل حين كإيتاء النخلة أكلها كل حين .

وقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه « ان المؤمن الضعيف قلبه كزرع والقوى قلبه كمثل النخلة » وخرجه البزار وغيره ، ولأن ثمرة الزرع وهو السنبل يستضعف ويطمع فيه كل أحد لقرب تناوله ، فيطمع الآدمى فى الأكل منه وفى قطعه وسرقته ، والبهائم فى رعيه والطير فى الأكل منه وكذلك المؤمن يستضعف فيعاديه عموم الناس لأن الاسلام بدأ غريباً ويعود غريباً كما بدا فطوبى للغرباء فعموم الخلق يستضعفه ويستهزئ به ويؤذيه لغربته بينهم . وأما الكافر والمنافق أو الفاجر الذى كالصنوبرة فانه لا تطمع فيـه ، فلا الرياح تزعزع بدنه ولا يطمع فى تناول ثمرته لامتناعها

وفى كتاب الزهد للامام أحمد عن عصام بن يحيى المصرى قال : شكا الحواريون الى المسيح عليه السلام من ولع الناس بهم وبغضهم إياهم . فقـال المسيح : كذلك المؤمنون مبغضون فى النـاس وانما مثلهم كمثل حبة القمح ما أحلى مذاقها وأكثر غداءها وقال كعب (رض) فى التوراة : ما كان حليم قط فى قوم إلا بغوا

---

(١) الزبر بفتح وكسر فسكون . العقل وتماسكه

عليه وحسدوه وكان خيثمة (رح) يقول كلاماً معناه : ان من الناس من أجتهد فى نفعه وهو يجتهد فى أذاى انه لايحب منافق مؤمنـاً أبداً . ومنها ان المؤمن يمشى مع البلاء كيفما مشى به فيلين له فيقلبه البـلاء يمنة و يسرة فكلما أداره استدار معه ، فتكون عاقبته العافية من البلاء وحسن الخاتمة و يوقى ميتة السوء ، فلهذا كان مثله كمثل السنبلة تقلبها الرياح يمنة و يسرة فلا تصرعه الرياح كما فى أمثال العرب اذا رأيت الريح عاصفا فتطامن . أى اذا رأيت الأمر غالباً فاخضع له . وقال الحكماء : لا يرد العدو أو القوى مثل الخضوع له ومثله مثل الريح العاصف يسلم منها الزرع للينه لها ومعها و يتقصف منها الشجر العظام لانتصابها لها . فالفاجر لقوته وتعاظمه يتقاوى على الأقدار و يستعصى عليهـا كشجرة الصنوبر التى تستعصى على الرياح ولا تتطامن معها فيسلط عليـه ريح عاصف لا يقوى عليها فتقلعه من أصله بعروقه فتهلـكه . وهـذا كما حكى الله عن عاد ، قال تعالى (فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق) الى قوله (وهم لا ينصرون) فمن تواضع لعظمة الله وصبر على بلائه كانت عاقبته الجنـة وسلم فى الدنيا والآخرة من البلاء ورجيت العافيـة له . والفاجر لما تكبر وتقاوى على أقدار الله عجل الله عقوبته وسلط عليه بلاء يتأصله ولا يقدر على الامتناع منه كالشجر العظام التى تقلعها الرياح بعروقها . قال بعضهم :

ان الرياح اذا عصـفن فانمـا * تولى الأذية شامخ الأغصان[1]

وقال غيره

من أخمل النفس أحيانا وروّحها[2] * ولم يبت طاوياً منهـا لمنحـل

ان الرياح اذا اشتدت عواصفها * فليس ترمى سوى العالى من الشجر

ومنها : أن الزرع وان كان كل طاقة منه ضعيفة ضئيلة إلا أنه يتقوى بما يخرج معه وحوله ويعتضد به بخلاف الشجر العظام ، فان بعضها لا يشد بعضا ، وقد ضرب الله تعالى مثل نبيه ﷺ وأصحابه بالزرع لهذا المعنى فقال (ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه) قوله : أخرج شطأه أى فراخه ، فآزره أى ساواه وصار مثل الأم وقوى به ، فاستغلظ أى غلظ ، فاستوى على سوقه . جمع ساق فالزرع مثل النبى ﷺ إذ خرج خرج وحده وأمده بأصحابه وهم شطأ الزرع كما قوى الطاقة من الزرع بما نبت منها حتى غلظت واستحكمت .

وفى الانجيل سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع .

وقد قال الله عز وجل (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) وقال (والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض) فالمؤمنون بينهم ولاية وهى مودة ومحبة باطنة ، ثم قال (انما المؤمنون اخوة) لأن المؤمنين قلوبهم على قلب رجل واحد فيما يعتقدونه من الايمان ، وأما المنافقون فقلوبهم مختلفة كما قال تعالى (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى) فأهواؤهم مختلفة ولا ولاية بينهم فى الباطن ، وانما بعضهم من جنس بعض فى الكفر والنفاق

وفى الصحيحين عن النبى ﷺ « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ـ وشبك بين أصابعه »

---

(١) الأغصان العالية (٢) من الترويح : أى أنعشها وطيبها

وفيها أيضا عن النبي ﷺ « مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى سائره بالحمى والسهر »

ومنها: أن الزرع ينتفع به حصّاده ، فانه يحصده أربابه ثم يبقى من بعد حصاده ما يلقطه المساكين وترعاه البهائم ، وربما استخلف بعضه فانتفع منه ثانية ونمغ منه ومن الحب ماينبت مراراً ؛ وهكذا مثل المؤمن يموت ويخلف ماينتفع به من علم نافع أو صدقة جارية او ولد صالح ينتفع به . وأما الفاجر فاذا اقتُلع من الأرض لم يبق فيه نفع بل ربما أثر ضررا ، فهو كالشجرة المحترقة لاتصلح إلا لوقيد النار .

ومنها: أن الزرع مبارك في حمله كما ضرب الله مثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء ، وليس كذلك الشجر لأن كل حبة مما نغرس منه لا تزيد على إنبات شجرة واحدة منها

ومنها: أن الحب الذي ينبت من الزرع هو مؤنة للآدميين وغذاء أبدانهم وسبب حياة أجسادهم ، وكذلك الايمان هو قوت القلوب وغذاء الأرواح وسبب حياتها ، ومتى فقدته القلوب ماتت ، وموت القلوب لايرجى معه حياة أبداً ، بل هو هلاك الدنيا والآخرة كما قيل :

ليس من مات فاستراح بميت   إنما الميت ميت الأحياء

فلذلك شبه المؤمن بالزرع حيث كان الزرع حياة الأجساد ، والايمان حياة الأرواح ؛ وأما ثمر بعض الأشجار العظام كالصنوبر ونحوه فليس فيه نفع وربما لايتضرر بفقده ، فلذلك مثل الفاجر والمنافق بهذه لقلة نفع ثمرها . والله أعلم ؟

تمت هذه النسخة المباركة المفيدة

رحم الله من جمعها ، ومن حثني على نسخها ، ومن نسخها ؛ وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

نسختها من نسخة الشيخ العلامة محمد كامل الكردي رحمه الله تعالى بمكة المكرمة يوم الربوع التاسع عشر من ذي الحجة الحرام سنة أربع وأربعين بعد الألف والثلاثمائة أيام ورودي بالحجاز في أول سلطنة السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، وفقه الله لما يحبه ويرضاه ، وجعله خير محافظ لمن تحت أمره . اللهم آمين

DUE DATE